البجعة

فؤاد التكرلي

ألوان المساء تتغير وتتبدل وتتلاين، كأنها أمواج بحر لا مرئي. كنتُ أنظر إلى صفحة الغروب من السماء التي كانت تبين من شباك الشرفة العريض وأنا جالسة أمام المنضدة. كنت أرى تلك المساحة اللونية المتلاعبة، وأنا أتأمل في شعور غامض يتملكني. إني أرى بعينيه.

أأرى بعينيه؟ أأرى من خلال ما يرى؟

كان أمامي، على الطرف الآخر من المنضدة، يتطلع مثلي إلى لوحة الألوان تلك بصمت. لم نتبادل الحديث منذ بعض الوقت؛ كنا نتبادل النظرات فحسب. عيناه أمام عينيَّ، تتكلمان بلغة أخرى، وترتفع حولهما الألحان والأغاني. ماذا يمكن أن نسمي كل هذا؟ تعودنا عليه منذ فترة، لا أدري متى. ربما كان ذلك منذ شهرين أو ثلاثة، حين قال إني بجعة بيضاء تشع نوراً.

– ولكني لا أملك منقاراً ولا عنقاً أو ساقين طويلتين؟

– قال. . كذلك.

فضحكنا، رغم أني لم أفهم كل شيء. كنت أستسلم لبعض ما أفهم منه، غير مبالية بما لا أفهم.

كان هو أستاذ العربية ولست أنا. كنت تلميذته حسب، في تلك الأيام المضيئة من الزمن.

حدث ذلك الأمر بعد انتقالنا إلى شقة في عمارات الصالحية، أجرناها بسعر معقول بعد أن تركنا دارنا الجميلة في الحارثية عقب وفاة والدي المفاجئة. أرادت والدتي أن يساعدها الفرق بين الأجرتين على تحمل أعباء العائلة المادية. كانت شقة صغيرة ونظيفة تحمل الرقم (٦) وتقع في الطابق السادس من العمارة رقم (٤٠) التي لا يفصلها عن وزارة الثقافة والإعلام غير شارع ضيق شبه مغلق.

كنا ثلاثة.. أنا ووالدتي وأخي الصغير حمزة. أخي حمزة هو الذي اكتشف هوية جارنا الأستاذ عبد الأحد، الأستاذ السابق في تدريس اللغة العربية. كان يسكن الطابق السادس ويعاني، مثلنا، من تعطل المصاعد المتكرر. كنا، ونحن في الأعالي، غير بعيدين مع ذلك عن الأعماق السفلى؛ فحين يتعطل مصعدا العمارة، كنا نتناوب النزول والصعود، أنا وأخي حمزة، من أجل قضاء حاجياتنا اليومية، تاركين والدتي مهمومة بشؤون البيت.

كان ذلك في ربيع سنة ٢٠٠٢ في شهر أيار، وكنت أنهيت من عمري ستة عشر عاماً وبدأت أحيا ربيعي السابع عشر، شاعرة بطوفان في صدري، ينبع من أعماق فيَّ تحتوي على رغبة مضنية للحياة وللنور وللحب. وبسبب هذه المشاعر المبهمة المتفجرة، لم يهمني كثيراً أن أرسب في مادة اللغة العربية وأن أعيد الامتحان فيها.

كانت الطيور في قفصها الواسع تتناغى وتتحرك باضطراب. سألته عنها فقال إنها تؤنس عزلته، فهو إنسان وحيد، وحيد، في هذا العالم. توفيت زوجته منذ زمن بعيد وتركه ابنه مسافراً إلى خارج العراق. قال:

– هذه الطيور، جاءت إليَّ برضاها. حطَّ طائر في أحد الأيام، في الشرفة فقدمت له صحناً مليئاً بالماء فشرب منه ثم طار ليستدعي طائراً آخر معه. وهكذا تكونت الجماعة، فرتب لهم ما يشبه قفصاً وأغلق قسماً من الشرفة ليحميهم من الرياح والمطر.

كانت الطيور هي الشيء المبهج الذي اكتشفه أخي حمزة لدى جارنا أستاذ اللغة العربية المتقاعد. بُهر بمنظرها وأصواتها وحركاتها وأخبرنا بما رأى فذهبت والدتي تقصد الجار حالاً وتسأل منه عن كيفية إنقاذي من ورطة اللغة العربية التي وقعت فيها. قالت إنه ابتسم مرحباً وأبدى استعداده لتدريسي ومعاونتي على النجاح. لم أكن رأيته ولا كان رآني، فوافقت

مرغمة، مشدودة إلى رغبة غامضة لرؤية الطيور التي حدثني عنها حمزة.

ذهبت رفقة والدتي نزوره. لم أكن رأيته كما قلت، ولكني شعرت بوجهه أليفاً إليَّ منذ الوهلة الأولى. كانت بدلته قديمة، قاتمة الألوان؛ لكن صفاء عينيه غير العادي، أزال تلك القتامة عن منظره. ماذا يحصل، إذن، بين الرؤية وتماس النظر وظمأ الأرواح وبين شؤون القلب المضطرب؟

لا شيء مفهوماً بالتأكيد؛ ولست أحاول منذ الأساس أن أفهمه. فما قد يبدو للبشر عاطفة ذات أبعاد معينة، كان لي ألفة واطمئناناً وانسحاراً من نوع خاص. وما يراه الناس أحياناً ميلاً وانجذاباً، رأيته اندماجاً في النفوس وارتياحاً في الأعماق.

في أول صباح أزوره مع أخي حمزة، بداية شهر آب من تلك السنة المضطربة، أبقى باب شقته مفتوحاً وجلسنا جميعاً وسط الصالة، تحت أنظار من قد يسلك الممر أمام الشقة. وكانت والدتي هي أول المارين الفضوليين. دعاها للدخول وأبدى لها خشيته، أمامي، من حاجتي لدروس مكثفة إلى حد ما. كم أخجلني ذلك! غير أني لم أعترض وتشاغلت بالتطلع إلى الطيور في عبثها البريء، غير مصغية إلى حديث أمي المشبع بالقلق على مستقبلي. كنت في داخلي مصممة على أن استوعب دروس اللغة العربية بمساعدة الأستاذ عبد الأحد أو بدونها؛ وكنت، أكثر من ذلك، مصممة على النجاح.

كنا جميعاً، تلك الأيام المنحوسة، مسكونين برعب خفي مما ستجلبه لنا الأحداث القريبة من ويلات أخرى لم نتعرض لها بعد. كانت التهديدات بالحرب تزداد يوماً بعد يوم؛ ولم يدر أحد، ربما في البلد كله، كيف يأخذها حقيقة. أهي مهزلة جديدة أم مشروع آخر لمجازر أخرى؟ وكنت أسأله أحياناً عن كل هذا.

لم يجبني بصراحة. لعله لم يرد أن يخيفني؛ غير أنه رجاني أن أخبر والدتي بأن علينا أن نفكر بمكان ننتقل إليه في حالة تردي الأوضاع. أكد عليَّ مرات عديدة أن نتدبر مثل هذا المكان. ولا أدري أية إمارات بدت على وجهي بحيث سارع إلى القول:

– من أجل الحيطة والحذر.. لا غير.

فلما سألته:

– وأنت يا أستاذ.. ماذا ستعمل؟

ابتسم. كانت ابتسامة حزن ومرارة واستسلام وأسى:

– أنا سأبلغ السبعين من عمري بعد شهرين؛ وأنا، حتى لو بحثتُ عن أحد أو عن مكان.. لما وجدته. ماذا تريدين مني أن أعمل يا صغيرتي.. غير أن أبقى مع الطيور؟

تلك الليلة لم أنم حتى ساعة متأخرة من الليل. اجتزت الامتحان بسهولة أواخر أيلول ٢٠٠٢، وبدأت سنتي الجديدة في المدرسة الثانوية. انقطعت عن دروسي مع الأستاذ عبد الأحد. لم يقبل منا النقود التي عرضتها عليه والدتي وأبدى لها امتعاضه بشكل لطيف. وحين ذهبنا نزوره، أنا وحمزة، حاملين له معنا كمية من الكليجة صنعتها له والدتي، رجانا أن نجلس ونشاركه شرب الشاي.

كان عصراً خريفياً والساعة لم تجاوز الخامسة، وبقايا من أشعة الشمس الحمراء تقسم جدار الصالة إلى قسمين. وإذ انزوى أخي حمزة قريباً من قفص الطيور، بعيداً عنا، كلمني هو هامساً:

– كيف تقبلين بتقديم المال لي.. أنتِ خاصة؟

كان يبتسم والسعادة تطل من عينيه؛ ولما لم أجب وغرقت في محنة الخجل المعتادة، أضاف:

– يكفيني أن تكوني لي.. نوراً من الجمال والأمل.

لم آلف منه هذه الكلمات، هذا النوع من الكلام الذي كنت أتمناه في السر. لبثت ساكتة، أنظر إلى وجهه المبتسم، فمدَّ ذراعه بهدوء ووضع كفه الحارة على يدي ثم ضغطها بخفة.

لم أنم تلك الليلة إلا ساعات قليلة. مكثت في فراشي أتقلب وأنا شبه محمومة. تأتيني صور وتبتعد عني ثم تعود؛ عيناه وكفه والطيور. وانتبه إلى نفسي ومن أنا ومن هو وما معنى كل ذلك. كانت الأسئلة تتضارب في ذهني بحدة، تقبل من لا مكان ثم تتماهى في الفضاء. هل لأي شيء، أي معنى، ولِمَ يجب أن يكون الأمر هكذا؟

ومضى الخريف وصرنا نقترب من نهاية سنة ٢٠٠٢ ونذر العاصفة الهوجاء تزداد في سماء بغداد مثل غيوم سوداء. كانوا يريدون رأس العراق بكل ثمن؛ وكان وضوح هذا الأمر مرعباً بشكل لا يحتمل.

لم أره لعدة أسابيع. أغلق بابه وتقوقع داخل شقته مع طيوره وكتبه. وكنت ممسوسة بتساؤل

مقلق عما حدث وهل يحمل معنى ما؟ أم لعلي أنا، تداخلني المشاعر المزيفة وأحشر نفسي في أمور لا أعرف كنهها.

أبديت لوالدتي بأني بحاجة لمعاودة دروس اللغة العربية مع جارنا الأستاذ عبد الأحد. رأيتها تبهت بشكل واضح وتحدجني بنظرات نفاذة شكوكة. لم تجبني أول الأمر، ثم همهمت بعد لحظة.

– لا يجوز.

فاستغربت كلمتها وشعرت ببعض الاضطراب ينتابني. هل تتهجس شيئاً ما؟ وإذ وجدتني واقفة بسكون أمامها أنتظر جواباً، أردفت:

– لم يأخذ منا نقوداً. لا يجوز أن نستغله هكذا.

ولكني عرفت في دخيلتي أنها ستبقى تقلب الأمر على أوجهه في ذهنها حتى تصل إلى القرار المناسب. وهكذا طلبت مني أن آتي معها صباح يوم جمعة شتائي مشرق. طرقنا بابه.

كان، عكس ما ظننت، بصحة جيدة وبمزاج حسن. لم نرد أن ندخل، لكن ترحيبه العريض بنا اضطرنا لذلك. كانت والدتي متوترة بعض الشيء، وكنت أحس بسعادة غريبة وأنا أتواجد معه في تلك الصالة.

تقبل منا فكرة معاودة التدريس بتلقائية، لم تدع لدينا أي شك بأنه إنسان محترم لا يجب المساس به بقضية النقود. كم بدت والدتي منبسطة القسمات ونحن نغادر شقته على موعد للقاء مساء ذلك اليوم.

جاء معي، كالعادة، أخي حمزة. أراد بمحض إرادته أن يأتي، منجذباً إلى رؤية مجتمع الطيور الذي كان يخلب لبه. أبقى الباب مفتوحاً وقدم لنا الشاي مع الكعك. تجرأتُ وسألته عما إذا كان ترك الشقة خلال الأسابيع الماضية، لأننا لم نره تلك الفترة، فابتسم:

– للكِ الحق. لم أفتح باب الشقة زمناً طويلاً نسبياً. تساورني نزعات الانعزال عن الناس، بين فترة وأخرى؛ وغالباً ما استجيب لها. يجب أن نحترم ما ينبع من أعماقنا بصدق. لقد غرقت مع الموسيقى، في تصفح أوراقي القديمة ومكتبتي، فمضى الوقت دون أن أشعر به. هل استوحشتِ دروس اللغة العربية؟

كان وجهه محلوقاً بعناية وشاربه الكث أبيض تشوبه بعض الشعيرات السوداء. كان أشيب

شعر الرأس، كثيفة؛ غير أن حاجبيه بقيا أسودين. كنت أشرب الشاي، جالسة بتحفز على كرسي مريح جنب مائدة منخفضة وضعنا عليها كتب الدراسة.

أجبته:

– لقد كان مبتغاي أن أنجح كما تعلم؛ لكني، لا أدري، أخذت أحس برغبة طاغية لدراسة العربية. إنها لغتي. وضحكت:

– أعني أنها تواتيني تلقائياً، دون جهد أحياناً.

– ولو تعلمين يا فتاتي الصغيرة، أية نعمة كبرى أُسبغت عليك! فلا شيء يضاهي قدرة التعبير بسهولة عن الذات والأفكار. ثم أردف وهو يقوم حاملاً معه أقداح الشاي:

–وهل ستفيدك هذه النعمة إذن؟

–ماذا تعني، أستاذ؟

–أعني.. متى ستبدأين بالتعبير عن ذاتك؟

كان يقف على مبعدة مترين مني، يتطلع إليَّ متسائلاً ومن عينيه الصافيتين تنبعث نظرات ود واهتمام. مكثت صامتة، ابتسم ببلاهة. كانت حزمة من أشعة الشمس ترتمي عليه، فيبدو كأنه مخلوق مضيء، وكنت أراه أمامي إنساناً آخر. ومنذ تلك اللحظة... هل أستطيع حقاً أن أقول.. انبثق في نفسي شعور غامض يتجه نحوه، شعور شجي بالاطمئنان والتفاهم كان يملأني ويجعلني، خفية، بالغة السعادة على مدار الساعة.

في ذلك المساء، حين قمنا، أخي حمزة وأنا، نروم الانصراف، ذكرني هو بما قاله لي قبل أكثر من شهر عن وجوب انتقالنا إلى مكان أكثر أمناً من شقتنا الحالية.

– تعالي، تعالي انظري، إذا لم تكوني قد رأيتِ بعد.

أشار إلى بناية وزارة الثقافة والإعلام عَبر الشارع، وأضاف:

– لاحظي هؤلاء المراسلين الأجانب، يدخلون ويخرجون ويراقبون. لقد بنوا لهم أكواخاً في شرفات الوزارة وعلى سطوح الغرف. إنهم ينتظرون، مثلنا، يوم القيامة.

أصابني قلق شديد وأنا أخبر والدتي بما قاله لي الأستاذ عبد الأحد وما شاهدته بنفسي. كانت على علم بما يجري فطمأنتني وبيّنت لي أنها اتخذتْ الاحتياط اللازم واتصلتْ بأقارب لها في بعقوبة وستنتقل في الوقت الملائم. لكن القلق بقي يخزني أياماً عديدة، ولم أفهم السر في ذلك

إلا حين ذهبنا أنا وحمزة إلى مدرس اللغة العربية فوجدناه واقفاً أمام الشباك، يتطلع إلى الخارج بسهوم. كان قد ترك الباب مواربا ولم يسمع طرقاتنا الخفيفة فدخلنا بعد أن رأيناه واقفاً وقفته تلك.

– إنهم يزدادون يوماً بعد يوم، من كل أنحاء العالم ومن كل الأجناس. لا يريدون أن تفوتهم مشاهدة ذلك اليوم العظيم. هل تدرين؟ كان يكلمني بألفة:

– حين يبدأون بالمغادرة فستكون تلك هي الإشارة.

ثم دعانا للجلوس فجلست وأنصرف حمزة إلى جهة الطيور، بينما اتجه سائراً إلى المطبخ لتحضير الشاي. لحظتئذٍ، وأنا أراقبه يمشي ببطء، عرفتُ أن القلق السري الذي يسكنني، سببه جزعي من المستقبل الذي سيواجهه، وحيداً، هذا الرجل. ولم أسل، لا نفسي ولا الآخرين، عن علاقتي بذلك؛ فقد كنت غارقة في موجة من عواطف لم أعهدها قبلاً.

في ذلك المساء، استطعت أن أكتم مشاعري تماماً وأن أفيد من دروس اللغة العربية فائدة جلية. إلا أني، بعد أسابيع، أخذت ألحظ في نفسي نزوعاً ملحاً كي أزيد من وقت وجودي معه ومن وقت التحدث إليه. كان ذلك أواخر سنة ٢٠٠٢؛ حين أفضيتُ لوالدتي بحاجتي إلى زيادة ساعات دروس اللغة العربية. كانت تشتغل في المطبخ. تعد لنا عشاء خفيفاً، فالتفتت إليَّ. لم أرَ وجهها ينطق بالشك والانزعاج مثل تلك اللحظة.

–لماذا لا تنتبهين هكذا إلى تصرفاتك، يا ابنتي؟

–هل تظنين أني أخطأتُ في شيء.. أم ماذا؟

–يُفترض بك أن تلاحظي.. أن تلاحظي العلاقات وحدودها.

تراجعت عن مناقشتها في الحال، فقد أحسست بها تمسني في موضع يؤلمني أن يمسه حتى جناح فراشة. ولكننا، مع ذلك، ذهبنا جميعاً لنسهر عنده في ليلة رأس السنة.. والدتي وحمزة وأنا والهدايا التي حملناها معنا إليه. قال إنه مسيحي لأنه ولد لأبوين مسيحيين وكان بوده أن يكون مسلماً مثلنا.

لم أُصدم بأقواله هذه، ولم أكترث بنظرات والدتي المستنكرة إليه، فقد كنتُ أعرف كل هذه الأمور عنه؛ غير أن فكرة طرأت على بالي ذلك المساء ونحن منغمسون في أحاديثنا عما سيفعله هؤلاء الأمريكان بنا وبأفراد السلطة، ملخصها أن استفسر منه بالذات ليوضح لي حقيقة مشاعري

نحوه؛ فهو، بعد هذه الحياة، يجب أن يكون عارفاً بكل شيء وأن يكون بمقدوره أن يحل الألغاز والأحاجي الباطنية.

ولكنه لم يرد أن يجيب؛ ولم أتوقع ذلك. لعل اقترابي من تلك القضية الشائكة كان خاطئاً.

كنت أدور حولها ولا أتوجه نحو الهدف. سألته:

-أأنت سعيد؟

كان ذلك في أمسية باردة ونحن على جهة من الصالة، جالسين كالعادة أمام المنضدة المنخفضة. قال:

-آه.. همزة الاستفهام.. هذه الهمزة لا يصح أن تدخل على الجملة الفعلية والجملة الاسمية مطلقاً. يمكنك أيضاً أن تستعملي »هل« وتقولي.. هل أنت سعيد؟ سوى أن »هل« تختص بالتصديق الإيجابي.

كانت عيناه المغرورقتان قليلاً، تنطقان بأمور أخرى فهمتها أنا على طريقتي الخاصة. لم أستطع منع نفسي من الابتسام وهمست:

-لماذا؟

فابتسم هو أيضاً ولبث ساكتاً يتأملني هنيهات:

-أنتِ تعبثين يا صغيرتي برجل بائس مسن! لماذا؟

-لأن ذلك يسعدني.

-آه.. السعادة!

-ألا توجد؟ ألا نبحث عنها جميعاً؟

-بالتأكيد. كلنا نبحث عنها، وغالباً ما نجدها وراءنا.

-أنا لا أجدها ورائي. أنا أعيشها هنا وأنا معك.

رأيته يبتعد بناظريه عني ويتطلع إلى جهة الشرفة.. حيث الطيور تتناغى فيما بينها وتتعابث. فارقت فمه الابتسامة وغامت عيناه بعض الشيء. لحظات وهو في ذهوله وأنا، دون حراك، أنتظر كلمة منه. ثم عاد إليَّ. ابتسم ابتسامة عريضة سعيدة:

-أنتِ إذن استثناء من القاعدة. متى أمكنك أن تصلي إلى هذا المستوى الرفيع؟

وإذ التزمت الصمت دون أن أميل ببصري عنه، قام بغتة متجهاً إلى المطبخ:

-سنشرب الشاي.

لم أنم بهدوء تلك الليلة. صار ذلك تقليداً مزعجاً يداهمني كلما انفعلت وفارت دمائي وأفكاري. إلا أني كنت، رغم ذلك، مبتهجة وأنا أتقلب على فراشي. لقد تجاوزتُ حدودي وسرت على طريق أمنياتي. ذلك إنجاز يجب أن يُحسب لي. وخلال تلك الليلة خطرت لي فكرة صممتُ أن أفاتحه بها. فمادام لا يريد أن يتجاوز الحدود مثلي، فعليَّ إذن أن أجعله يفهم.

سألته:

-هل تظن أن للأرواح أعماراً؟ أم أنها تقاوم الزمان، أو بكلام آخر لا تأبه بالزمان؟

كان ذلك أوائل شهر شباط ٢٠٠٣. لاحظت عليه أنه كان متوتراً في جلسته وفي إيماءاته وكلامه. بدا لي أنه صار شخصاً مختلفاً خلال الشهرين الأخيرين. لم يكن يخفي عني ارتياحه لوجودي معه في الشقة وللحديث الصريح الذي نتبادله أحياناً. كان تلقائياً لا يشعر بأي حرج. أما هذه الأيام..

-هذا موضوع جميل للإنشاء، ولكن..

نظر إليَّ بتساؤل ومرارة:

-أأنت خالية البال إلى هذه الدرجة؟ ألا تسمعين طبول الحرب، تدق على أبواب بلدك.. العراق؟ خجلتُ وأردت ألا يظهر الخجل عليَّ أمامه:

-هذه همزة الاستفهام. لقد أدخلتها في جملة أسمية وأخرى فعلية.. أليس كذلك؟

فأغلق عينيه هنيهة متصابراً ومَدَّ ذراعيه بحركة لم أتوقعها فاحتوى كفيَّ بكفيه:

-يابنيتي.. يابنيتي، ماذا تفعلين بنفسك؟!

ثم انحنى برأسه ولثم ظاهر يديَّ اليمنى واليسرى. كنت أرتجف انفعالاً وجنوناً وسروراً، وشعرت بقلبي يكاد يقفز من بين الضلوع. ثم سمعته:

-الأرواح لا علاقة لها بالزمن. هذا صحيح، ولكن الزمن يعبث بعلاقات الأرواح. إنه يصيبها في مقتل عن طريق الأجساد. الأجساد.. الأجساد، هذه هي التي تفنى وتأخذ الروح معها. وجدتني أسحب يديَّ وأخفيهما في حجري هامسة:

-لا أفهم هذه الأقوال ولا أريدها. لا أحبها ولا أريدها. افهمني. افهمني.

-ليتني لا أفهمك يا صغيرتي.

كان حديثاً بين روحين؛ شعرت وأنا استرجعه بارتجافة غبطة تخترق جسدي. كنا نتحاور؛ كنا روحين تتحاور فيما بينها. يا لله.. ما كان أجمله من حوار!

كنا بمفردنا فقد انصرف أخي الصغير قبل ذلك بفترة قصيرة، ولم يكن لدي أي سبب يدعوني للافتراض بأن حوارنا ذاك تعدانا نحن الاثنين، غير أني دهشت إذ وجدت والدتي كأنها على علم بكل كلمة تبادلناها. أخذت، منذ ذلك المساء بالتحديد، تخزرني بنظرات حادة لم ألفها منها قط قبلاً. وبسبب خشية باطنية ساورتني، لم أفكر بمفاتحتها عن معاودة الدروس والذهاب إليه.

كنا، مع ازدياد خطر الحرب، نتحرك لتدبير أمر سفرتنا إلى بعقوبة في موعد ملائم. كانت والدتي تجمع أشياءنا وترتبها وتحزم بعضها وتتصل هاتفياً كل يوم تقريباً بأقاربنا وتسألهم وتستوضح منهم عن أمور شتى، وهي مقطبة الجبين منقلبة السحنة. لم أعهدها هكذا، وأرجعت السبب للظروف العصيبة التي نمر بها، وكان الوقت يمضي. ثم حدث في الأسبوع الأخير من شباط أن تملكتني رغبة حرى، لا أدري كيف ولماذا بزغت في نفسي، رغبة تدفعني كي أراه وأكمل حديثي معه. كنت أريد أن أقول له بأن لا جدوى من التظاهر، فأنا أجدك أنت الروح القريبة لروحي. لا تحدثني عن الأعمار فأنا أجهل ما هي ومن فرضها علينا. قل لي فقط.. أأنا على حق؟

أخبرتها، كذباً، بأن لدينا امتحاناً صعباً في اللغة العربية، ويتوجب أن أراجع دروسي مع الأستاذ عبد الأحد.. فهاجت على حين غرة وهجمتْ عليَّ ممسكة بكتفيَّ، تهزني هزاً عنيفاً وتصرخ:

-لا دروس، لا دروس لعينة بعد الآن. أيتها الوقحة.. هل تظنينني بهذا الغباء؟ قولي. قولي.

ذهلت ذهولاً عظيماً واستولى عليَّ ضعف شديد فانغلقتْ عيناي وكدت أغيب عن الوعي وأنا مضغوطة بين ذراعيها. صدمني انكشاف سري هكذا علناً وتوسلت بوالدتي أن تتركني لحالي.

كانت، هي الأخرى، مرتاعة ومصدومة نفسياً، فمكثنا، نحن الاثنتين، طريحتي الفراش أياماً ثلاثة. وكان علينا، بعد ذلك، في بداية شهر آذار ٢٠٠٣، أن نتهيأ حقاً لمفارقة تلك المجالي التي يحيط بها الخطر. قيل بأن الغزو آت لا محالة وأننا نعيش ضمن دائرة الخطر بجوار بناية وزارة الثقافة والإعلام التي، لاشك، ستكون هدفاً أكيداً للصواريخ.

كانت والدتي تحاول أن تحسب لكل التوقعات حسابها؛ فهي تريد أن تنقذ العائلة من دمار قد يحل بها، وهي، من جهة أخرى، لا تريد أن تقضي وقتاً أطول مما يجب في بيت أقربائها؛ لذلك كانت تبحث في ذهنها عن الوقت المناسب للابتعاد عن الشقة. ولم تكن تدري كيف تصل إلى حسم هذا الأمر.

وإذ أصابها اليأس من إيجاد الجواب الشافي لهذا السؤال العويص فقد تبرع به عليها صغيرنا حمزة. قال إنه يتذكر أن الأستاذ عبد الأحد أخبرنا يوماً بأنه يعرف بالتقريب متى ستبدأ الحرب.

نظرت إليه شزراً ولم تنبس بكلمة فاستمر حمزة:

-قال لنا إنه يراقب المراسلين الأجانب باستمرار، ويعرف عن يقين أنهم حين يجمعون آلاتهم ومعداتهم ويتهيأون للهرب، فان معنى ذلك أن الحرب على الأبواب. ثم التفت إليّ:

-ألا تتذكرين؟

هتفت به والدتي:

-متى كان ذلك؟

-منذ أسابيع.. لا أدري.. حين زرناه في إحدى المرات. ابتعدتْ منزوية في جهة من المطبخ وعلى وجهها سمة تفكير وانزعاج تحاول إخفاءها. كانت شبه منسحقة تحت وطأة المستقبل المهدد، ولم تدر، أمام المخاوف الرهيبة التي تتباين في الأفق، كيف تحمي عائلتها الصغيرة. ثم، بعد لأي، قررت أن تقصد شقة الأستاذ عبد الأحد. اتخذت هذا القرار بعد دقائق من حديث حمزة. وضعت شالاً يخفي رأسها وكتفيها وطلبت بحزم من الصغير أن يرافقها. حافظتُ على سكوني منتظرة تصرفها. وجهت إليَّ، قبل أن تخرج، عدة كلمات قصيرة:

-أنتِ تبقين في الشقة، لئلا يتصل بنا أحداً تلفونياً.

لبثت أراقبهما، واقفة وراء الباب الموارب، وهما يسيران بعجلة مجتازين الممر الحجري الضيق. سلَمت والدتي على الجارة أم عبد الله التي تترك باب شقتها مفتوحاً على الدوام،

وتوقفت قليلاً تثرثر معها. كنت شقية بشكل لم أتصوره؛ كأن ثقل السماء انهار على كتفيَّ. منعتني من رؤيته هكذا بكل بساطة! ماذا يساورها بشأني؟ وكيف.. كيف سيمكنني أن أراه وأن أحدثه وأفضي له بأفكاري ومشاعري؟

ثم رأيتهما يتوقفان أمام بابه وتطرقه والدتي. فتح لهما وأغلقت أنا الباب. منغمرة بذهولي وأنا

جالسة بمفردي في الصالة الفارغة، تناوشتني خواطر متضاربة. ماذا أريد منه؟ ماذا بمقدوري أن أقدم له؟ وكيف تسنى لي أن أتجرأ؟ وما هي هذه المشاعر التي يفيض بها قلبي؟ وما مدى إخلاصي بشأن كل هذا؟

ثم وجدت نفسي منساقة للإمساك بالقلم. تناولته وأمسكت به أمام الورقة البيضاء. إلا أنني ترددت ثم نكصت. لم أعثر على كلمة واحدة أدونها. بدا لي أن ما بي يعلو على الكلمات؛ وأن هذه الإشارات التي اعتاد استعمالها البشر منذ آلاف السنين، تعجز عن مساعدتي. كانت تلك محنة إضافية أخرى. وبقي التردد مستولياً عليّ وأنا أنتقل، ضمن تساؤلي الذاتي، من مستوى إلى آخر. أيمكن إذن أن أكون متمردة من نوع جديد.. لا أحب المقاييس القديمة ولا المتعارف عليها ولا حتى الطبيعية؟ وهل يكون الجنون على شكل آخر؟

رجعت والدتي مبتهجة بغباء. كانا مبتهجين، هي وحمزة؛ وكل واحد منهما لسبب مختلف. الصغير أسعدته الطيور ووالدتي طمأنتها أقوال الأستاذ. أكد انه يضمن لها بأن يخبرها عن الوقت الذي يتوجب علينا فيه أن نغادر، فارتاحت لكلامه.

لم تقل.. هل سأل عني أم لا؛ الصغير حمزة هو الذي نقل إليَّ تحياته، فشعرت بأن هذه السيدة والدتي، إنسانة يجوز عصيانها.

كنا، في نهاية الأسبوع الأول من شهر آذار، على يقين تام من اقتراب العاصفة، وكنت مع بقية تلميذات المدرسة قد فهمنا بغموض بأن من العبث أن نستمر على الدوام؛ غير أني لم أجد حاجة لأخبر والدتي بذلك. طرقتُ، يوماً، بابه في الصباح الباكر، فلم ألقَ جواباً. أكان مستغرقاً في النوم.. أم لم يرد أن يراني؟

لم أعاود الطرق. كنت خائفة، مرتجفة الأوصال؛ وكنت، أكثر من ذلك، منزعجة بعمق من المعنى الذي يحمله هذا الخوف والارتجاف. أيكون دمي، لا عقلي فحسب، مرتبطاً بذلك الميثاق الأجوف الذي يشدني إلى هؤلاء؟

عدت بعد جولة طويلة في الشوارع فأخبرت والدتي بأن الدوام صار متقطعاً ولكن علينا، مع ذلك، أن نداوم. كنت أريد أن أجدد المحاولة، بعذر أم بغيره؛ وكنت أشعر بأن الوقت لم يعد يتسع لأي إمهال.

أتذكر ذلك الضحى من يوم الأربعاء، الثاني عشر من آذار ٢٠٠٣، حين طرقت عليه الباب

ثانيةً. كانت الساعة تقترب من العاشرة. أدهشه حد الذهول أن يراني واقفة باضطراب أمامه. لم يدعُني للدخول، ولم يكن أمامي إلا أن أدخل، فاندفعت مارقة جنبه.

لبثت صامتة، خافقة القلب، وأنا استند بظهري إلى الحائط في المدخل الضيق. لم يغلق الباب تماماً، والتفت إليّ يكلمني بصوت خافت:

-صباح الخير. مابك يا صغيرتي؟ اهدئي قليلاً.

-العفو أستاذ عبد الأحد، اعذرني. أرجوك. أردت أن أكلمك فقط.

-وأنا أيضاً. تفضلي. هل أرسلتك والدتك؟

-كلا.

ولم أتحرك من مكاني. قال:

-كنت أريد أن أكلمها. حان وقت الاستعداد للسفر كما يبدو. لم يبق وقت طويل وعليكم أن تبتعدوا.

-وأنت؟ وأنت؟

-تعالي أجلسي. لا تضطربي هكذا. هيا، اجلسي.

بقيت واقفة، بإصرار، مكاني. عادت إلى وجهه الدهشة ونظر إليَّ متسائلاً. همستُ:

-هل تقف ضدي أنت أيضاً؟

كانت عيناه متعبتين، صافيتين، حزينتين:

-لماذا تتكلمين هكذا؟

-لأني وحيدة وعزلاء في هذا العالم. قل لي أأنا على خطأ لأني في السابعة عشرة من عمري، ولأني... وسكت وأنا ألهث. وضع يده برفق على فمي:

-لا تكملي، أرجوك.

ثم برفق، بغاية الرفق، أمسك بذراعي التي تحمل الكتب المدرسية وقادني فأجلسني على كرسي أمام المنضدة المنخفضة حيث اعتدنا الجلوس. كان عليها كتاب استطعت، في لحظة، أن أقرأ عنوانه «موديراتو كانتابيل». وجلس هو أيضاً. كان يتطلع إليَّ كأنه يراني من بعيد أو كأني على مسافة قصية منه. قال وهو يمسك مرة أخرى بيديّ ويضغطهما بين كفيه:

-أنا آخر من يقف ضدك. لا تظني أني لا أفهمك. ولكن.. أتعلمين؟ هناك أمور مستحيلة

في الحياة، هنالك مستحيلات كثيرة، وأنتِ يا صديقتي الغالية، تواجهين واحداً منها. أنا أخشى عليك من نفسك. أنت تريدين أن تتخطي الحدود، وهذا أمر غير مسموح لكِ به. ولكني، مع ذلك، سعيد بك ومزهو بما أراه منك. أنتِ روح نادرة، متعالية، شفافة؛ ونحن.. أنتِ وأنا.. لا مكان لنا هنا.. هنا.. ألا ترين؟

أردتُ أن أقول له بأني لا أريد تحقيق أمر ما، ولا أريد منه شيئاً معيناً؛ واني أكره هذه الارتباطات الحياتية المعهودة، ولا أدري كيف وصلت بي الأمور إلى أن أصير بهذه الحال المشتتة.. إلا أني لم أفه بكلمة. سمعته يسألني:

-أليس كذلك؟

فأجبت بهمس:

-نعم.

ثم سحبتُ بلطف يديَّ من بين كفيه وقمت. سألته:

-ستبقى هنا؟

فهز رأسه ووجهه الحزين يطفح بالقلق.

لم أره بعد ذلك؛ وبعد أيام حين جمعنا أشياءنا وخرجنا حاملين الحقائب، أرادت والدتي أن تمر عليه لتشكره على ما قدم لنا من نصائح وخدمات، لكنه لم يكن في الشقة. أخذنا طريقنا إلى بعقوبة فوصلناها والشمس تغيب.

رحب الأقارب بنا وحشرونا في غرفة باردة في الطابق الأرضي. خلال الطريق والسيارة تهزنا، كنت أشعر بالعبرة تستقر في أعلى صدري. كنت أفكر بكلماته وما كانت تدل عليه وبماذا كان عليَّ أن أجيبه بدل السكوت. أكان بوسعي حقاً أن أشرح له حالي التي لم يفهمها تماماً وأن أبيّن له بأني لا أريد منه شيئاً ولا أريد مطلقاً تلك الارتباطات الحياتية؟ أم أنني كنت، بعد كل شيء، عاجزة عن النطق بالكلمة، لأنني ربما روح، كما قال، لا علاقة لها بهذا العالم التعيس؟

وإذ انفتح علينا باب الجحيم ونحن منزوون في جحرنا الرطب البارد، وبدأتْ الانفجارات والأصوات الوحشية تتكالب على رؤوسنا دون رحمة ودون اكتراث، وأنا منكمشة على نفسي والهلع يرجفني ويكاد يفقدني الصواب، كنت أنتقل بعيداً، ذاهبة بفكري وقلبي إلى بغداد، إلى تلك الصالة الهادئة التي صارت لي فردوساً مفقوداً، وإلى الشخص الوحيد الذي يهمني بقاؤه

على قيد الحياة. وخلال عشرين يوماً من حرب المتحضرين هؤلاء الوحشية بكل معنى الكلمة، وفي غمرة الأخبار المفجعة عن الخراب الشامل والتقتيل الجماعي ومجازر الأبرياء، كنت أفكر فيما سيقول لي وفيما سأقوله له.

لعله أراد أن يشرح لي مدى الإحباط الذي يشعر به والذي يحيط بنا ويحيط بعالمنا كله. وكنت أفكر، بعد هذه الأسابيع المظلمة من الجزع والارتعاش والأفكار السوداء، أن باستطاعتي أن أقول له بأن علينا، رغم كل شيء، أن نجابه هذا الإحباط الذي أوحى به إليّ وأن نفعل، من أجل إنقاذ سعادتنا، ما نشاء ما دمنا يائسين إلى هذا الحد. أليس اليأس هو الذي يفتح أحياناً باب السعادة؟

كنت مجنونة بأفكار من هذا النوع بعد توقف القتال وسقوط التماثيل. أراد منا الأقارب أن نبقى في بعقوبة فترة أخرى، غير أن والدتي وأنا أصررنا على العودة، كل منا لأسباب مختلفة. هي قلقاً على شقتنا وأنا، لهف نفسي، قلقة عليه.

وجدنا بصعوبة سيارة أجرة تقلنا إلى بغداد. كان الجو ملبداً، ملوثاً بأنفاس المحاربين وبرائحة القتلى وبدخان الحرائق، وكانت بغداد، مدينتي العزيزة، مرمية على الأرض، مثخنة بالجراح.

وصل إلى سمعنا قبل أيام من رجوعنا، أن بناية وزارة الثقافة والأعلام قد قصفت بعنف عدة مرات بصواريخ موجهة وأنها دمرت على آخرها. كان ذلك الخبر من الأسباب غير المباشرة لإسراعنا بالعودة.

وصلنا بأعجوبة إلى مجمع العمارات في الصالحية. كانت الساحة شبه خالية فركضنا نحو

عمارتنا وأخذنا نصعد السلالم التي بدت لنا بغير نهاية. كانت القاذورات تسد علينا الطريق في بعض الأدوار والروائح الكريهة تملأ الجو. وصلنا طابقنا السادس لاهثين وركضنا نحو شقتنا خلال الممر المترب. كان باب شقته مغلقاً وعليه آثار كسور. ولم نسر إلا خطوات حتى برزت أم عبد الله من باب شقتها بعد أن سمعت خطواتنا. كان وجهها مطبوعاً بطابع الارتياع والذهول. صرخت إذ رأتنا:

-أنتم! الحمد لله. الحمد لله على سلامتكم. الحمد لله.

ثم احتضنت والدتي مجهشة بالبكاء. أخبرتنا أن صاروخاً سقط قرب الدار العائدة لأخيها في الجعيفر والتي لجأت إليها، ففضلت أن تعود إلى الشقة بعد أيام من بدء الحرب.

رافقتنا ملتصقة بنا ونحن نسرع نحو شقتنا. كانت مضطربة، لاتني تتكلم وتشير بيديها دون انقطاع. قالت إنها كانت في شقتها حين سقط الصاروخ الثاني على بناية الوزارة فارتجت الأرض وتمايلت العمارة كلها، فتملكها الهلع وخرجت من الشقة مثل بقية الساكنين. وجدت الأستاذ عبد الأحد متكئاً على باب شقته والدماء تسيل من أطراف جسمه ووجهه ورأسه. قال لها إنه أصيب بشظية أثناء ما كان يطعم طيوره وانه سيحاول أن يجد وسيلة للذهاب إلى إحدى المستشفيات، لأنه كان ينزف بشدة. ثم رجاها أن تغلق باب الشقة وتحتفظ بالمفتاح لديها حتى يعود؛ ومضى يجرجر بقدميه والدماء تسيل منه. ولم تره منذ ذلك الحين.

كان حديثها خليطاً من صراخ وهمسات، وقد بدا عليها الارتياب مما كانت تحكيه لنا. وجف قلبي. كنت مرتاعة من أمور كهذه توقعتها. وجدت نفسي أهتف بها:

– هل عاد؟ ألم يعد؟

تراجعتْ بخوف إلى الوراء وهزت رأسها نفياً ثم تهاوت على كرسي وراءها. كان الروع يملكني وأنا مرتجفة الأوصال غير قادرة على الثبات. لم أعد أسمع حديثهما وانزويتُ بعيداً متظاهرة بالتفتيش في نواحي الشقة عن أشيائي. لن تسنح لي الفرصة إذن للحديث معه والاستماع إليه. تهجستُ بأن مستوى الحياة الجميل ذاك، لا يمكنه أن يقاوم الزمن طويلاً.

توقعت هذا من صميم قلبي. ولكنني ظننت، بغباء، أن ليس من العدل أن يختفي الإنسان الوحيد الذي شعرت أن باستطاعتي أن أجعله يفهمني ويفهم عاطفتي نحوه.

بكيته، خفية، عدة ليالٍ، وأنا منطوية على نفسي في الفراش، أرتعش مما كان يدور حولنا من انفجارات وإطلاق رصاص واستغاثات وصراخ. لا يمكن أن تسمى حياة، تلك المعايشة التي لا تحتوي إلا على الذكريات.

رفضتُ أن أرافقهم حين انصرفوا لفتح شقته. لم أرد، ربما، أن أودعه الوداع الأخير، وبقيت مصممة، بجنون، أن آمل بعودته. كنتُ، الآن، على يقين بأن الإحباط واليأس لن يفتحا مطلقاً أي باب، وبالأحرى باب السعادة.

دمشق

تموز/ ٢٠٠٥